متشربين بالنزوع القومي العربي عقب الحرب العالمية الاولى (ص ١١)، بل انها تقدم الاساس لاطلاق تعليقات ضآلة مكررة على «القوميين العرب» (أي العروبيين وليس اعضاء حركة القوميين العرب لاحقاً) و«المسلمين». وتعود أهمية ذلك الى ان دوبوي ومارتيل هما من المؤلفين الغربيين الذين يكتبون لجمهور غربي معبأ ضد العرب والمسلمين؛ فيشير المؤلفان الى العروبيين بوصفهم قوميين عرب مسلمين (ص ٩)، متجاهلين حقيقة وجود مسيحيين عديدين من بين ابرز مناصري الوحدة العربية. ويعلقان، لاحقاً، «على السوريين... مثلهم مثل غالبية المسلمين» (ص ١٢)، مما يغفل وجود ١٥ بالمئة من الشعب السوري مسيحيين. ويظهر الغرض الطائفي لهذه العبارات كافة حين يصف المؤلفان الدستور الطائفي اللبناني (الذي ادى، نهاية، الى انهيار البلاد) بانه «عادل»، مع اضافة ان «القومية اللبنانية، التي استندت الى التعددية السياسية والمؤسسات الديمقراطية، كانت غريبة، في الجوهر، عن المواقف والتقاليد المسلمة» (ص ١٠ ـ ١١).

بعد استعراض هذه الخلفية من العواطف السلبية، ان لم نقل العدائية، تجاه العروبيين والمسلمين، يخصص دوبوي ومارتيل اربع صفحات كاملة لسرد تاريخ «الصهيونية، واصول اسرائيل»؛ فينتقلان بالقارىء، بسرعة، من القرن الثاني عشر ما قبل الميلاد، مروراً بالجرائم النازية، ووصولاً الى نهاية الانتداب البريطاني على فلسطين. ويفترض ان ذلك يهدف الى تقديم مسألة قيام الصراع العربي ـ الاسرائيلي والمشكلة الفلسطينية. ولعل المؤلفين يتجنبان العداء الشديد، لكنهما يكشفان عن تشنجاتهما وتعصباتهما الشخصية، فيقولان، في الفقرات الاولى في الكتاب، مثلاً، ان الفلسطينيين «قد استوطنوا [لبنان] بعد ظهور دولة اسرائيل الى الوجود» (ص ٣). وهذه العبارة الحيادية، المنظفة والخالية من الاساءات، لا تشير، طبعاً، الى اية مصطلحات تشير الى حقيقة الامر. فكلمة «لاجئين»، التي قد تطرح نوعاً من حق الملكية لمنزل مفقود، لا ترد؛ ولا ترد اشارة الى اعمال عنف، أو حتى الى الحرب العربية ـ الاسرائيلية في العام ١٩٤٨، وكأن شيئاً لم يكن؛ بل ذهب الفلسطينيون الى لبنان «صدفة»، و«قامت» دولة اسرائيل سلماً ! وحين يقبل المؤلفان، أخيراً، بوصف الفلسطينيين كلاجئين، يؤكدان انهم «من المسلمين غالباً» (ص ٢٣). يضاف الى ما سبق، ان الكتاب اكد امتلاك اليهود عشرة بالمئة من مساحة فلسطين في العام ١٩٤٨، وليس ٤ ـ ٥ بالمئة كما كان الواقع (ص ١٦).

توالت الاخطاء والاغفالات، حيث ذكر دوبوي ومارتيل ان اسرائيل قد أعادت عشر قرى، احتلتها في اثناء حرب العام ١٩٤٨، الى السيادة اللبنانية (ص ١٩)، لكنهما تجاهلا الحولة والمطلة وهونين وطربيخا، التي تحولت، جميعاً، الى كيبوتسات اسرائيلية. بل ان حركة «امل» أكدت ان ٢٨ قرية رازحة تحت الاحتلال منذ العام ١٩٤٨ وحتى الآن.

ثم انتقل المؤلفان الى عقد الخمسينات، فاعتبرا ان الملك عبدالله كان «بوضوح، الناطق المعترف به بأسم الطموحات العربية في فلسطين» (ص ٢٤). والاغرب في الامر هو اغفال المعارضة الشديدة لعبدالله من قبل مصر وسوريا والعربية السعودية، عند ضمه للضفة الغربية العام ١٩٥٠، وتجاهل المعارضة الفلسطينية المزمنة له. ثم طلع علينا المؤلفان بخبر الحامية البريطانية في الاردن حتى العام ١٩٥٨ (ص ٢٠)، علماً بأنها انسحبت في ١٩٤٦، فاقتصرت بعد ذلك على ضباط مفرزين الى الجيش الاردني، غادروا جميعاً، في ١٩٥٦ ـ ١٩٥٧. وجاءت وحدات مظلية الى عمان بشكل مؤقت في تموز (يوليو) ١٩٥٨، كقوة تدخل سريع، وسرعان ما غادرت أيضاً.

صحيح ان الكثير من الاخطاء على صعيد الحقائق هي ثانوية نسبياً، بحد ذاتها، الاّ انها تدل على استغفال وعدم اكتراث للتفاصيل. وهذا ينبع اما من المواقف المسبقة تجاه العرب والمسلمين والفلسطينيين وأمثالهم، واما من الشعور بأن دراسة سطحية عابرة لتاريخ المنطقة تكفي لاطلاق التعميمات الرئيسة. وتعكس هذه الغريزة الاخيرة عملية «تهميش» العرب وشعوب العالم الثالث في الروايات التاريخية الغربية التي تصدر عن مناطقهم هم. ولعل المرء يفاجأ بالعثور على دوبوي في هذا الموقع، قياساً بدراساته الموضوعية السابقة؛ اذ سعى الى لقاء الضباط العرب وأخذ سرد الاحداث من وجهة نظرهم، لكنه ربما سارع الى التوصل الى نقاط سياسية معينة فاهمل التاريخ الحقيقي وقام بتقديم منحرف ومشوه غرضه الوصول الى استنتاجات مشوهة.